الاستعمار: الأنواع والدواعي

الباحثة/ إيمان فتحي محمد حسن

ملخص البحث:

لم تكن فكرة الاستعمار وليدة العصور الحديثة، بل لها جذور بعيدة في التاريخ الإنساني، ومصطلح (الاستعمار) في حد ذاته من ناحية لغوية فإنه ذو دلالة إيجابية؛ حيث يشير إلى "التعمير" كما قال تعالى" هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا"(سورة هود، من الآية: ٦١).

وفكرة التعمير هذه تتنافى مع الأطماع التي يسعى الاستعمار إليها، والأدق أن يُطلق عليه مصطلح "الاحتلال".

ولقد اتخذ الاستعمار بمعناه السلبي " الاحتلال " عدة أشكال؛ فمنه ما يعتمد في الأساس على القوة العسكرية البحتة، وهذا النوع من الاستعمار هو الذي كان سائدًا في العصور السابقة وذلك مثل الحملات الصليبية.

ومن أنواع الاستعمار: الاستعمار الاستيطاني؛ والذي يعتمد على أن ينزل البلد المستعمَرة ويعمل على تهجير أهلها ليقوم مقامهم، ومثال ذلك: أمريكا مع الهنود الحُمر.

ومن أنواع الاستعمار أيضًا استعمار الهُوية! وهو أخطر أنواع الاستعمار نظرًا لأنه يعتمد على إحلال ثقافة مكان ثقافة ولغة مكان لغة، ويمثل هذا النوع من الاستعمار: الاستعمار الفرنسي للجزائر، وهذا النوع الأخير من الاستعمار أفاد أصحابُه من التجارب الاستعمارية السابقة التي كانت تعتمد فقط على القوة العسكرية، وعلمت الدول التي اعتمدت على استعمار الهُوية أن هذا النوع أشد تأثيرًا من الاستعمار العسكري.

The idea of using force to control non-Arab countries was ancient and did not appear only in the modern era, and the word colonization denotes a good meaning, because it was mentioned in the Holy Qur'an in the sense of rebuilding, and this meaning is not wanted by colonialism.

There are many types of colonialism: the first type is colonization by military force only, such as the Crusades, the second type: colonialism that works to expel the people of the country and reside in their place, and the third type: colonialism that works to influence the minds of the owners of the country to which the colonial armies come

المطلب الأول: نشأة الاستعمار: الأهداف والدوافع:

أولًا: تعريف الاستعمار:

الاستعمار لغةً: عَمَرَ، العين والميم والراء أصلان صحيحان، أحدهما يدل على بقاء وامتداد زمان، والآخر على شيء يعلو من صوت أو غيره، وقول العرب: لعَمْرُك، يحلف بعمره أي حياته... ومن الباب: عمار الأرض، يُقال: عَمَر الناسُ الأرضَ عمارةً وهم يعمرونها وهي عمارة"[١] ومنه قوله تعالى: " هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا" [٢]

وتشيرُ الباحثةُ إلى أن مصطلح "الاستعمار" في أصله هو ذو دلالة إيجابية، كما تقدم الاستشهاد بالآية الكريمة، ولكن دُرِج حديثًا على استعمال هذا المصطلح فيما له تعلقٌ باستيلاء دولة على دولة، وفي بداية الدراسة تنوّهُ الباحثةُ إلى أنها ستستعمل هذا المصطلح "الاستعمار" طبقًا لما هو وارد في الكتابات التي تردُ على ألسنة أعلام الدراسة، وتنبِّه إلى أن المعنى الأدق في هذا هو أن نستخدم مصطلح "الاحتلال" بدلًا من "الاستعمار"؛ حيث إن الأهداف المرجوة من وراء مصطلح الاستعمار ليس فيها أي عمارة للدولة التي يتم "استعمارها"؛ بل هو تخريب ومحاولة لمحو هُوية الدولة المُحتَلَّة؛ وإحلال لغة مكانة لغتها، وثقافة مكان ثقافتها، وهذا يتناسب معه مصطلح "الاحتلال".

الاستعمار اصطلاحًا:

هو "تعبير أُطلِق على استيلاء شعب بالقوة العسكرية على شعب آخر؛ لنهب ثروته واستغلال أرضه، وتسخير طاقات أفراده لصالح المستعمِرين... ويرافق ذلك اتخاذ مخططات تحويل هذا الشعب عن دينه ومفاهيمه ومبادئه وأخلاقه وسلوكه الفردي والاجتماعي إلى ما عليه دولةُ الشعبِ الغالِب/المستعمِر مِن مبادئ ونُظُم وعادات إذا كان بين الغالبِ والمغلوب تباين في ذلك"[٣]

ومن هذا التعريف يتضح ما تم ذكره آنفًا من أن هناك تطورًا في استخدام مصطلح "الاستعمار" وتباينًا عن معناه اللغوي القديم.

وتؤكد الباحثةُ على أن هذا الأمر ليس اعتباطيًّا؛ ففي كثير من الأحيان يُصَدَّر مصطلح بعينه كمحاولة تمويهية لتمرير المعنى الخفي الذي يحمله هذا المصطلح، والذي يكون مقصودًا من قِبَل الذين يصدرونه لترسيخ مفاهيم بعينها.

---

(١)ابن فارس (أبو الحسين)، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، جزء ٤، دار الفكر، القاهرة، دون سنة نشر، ص ١٤١: ١٤٢.

(٢)سورة هود، من الآية ٦١.

(٣)الميداني (عبد الرحمن حنبكة)، أجنحة المكر الثلاثة، دار القلم، دمشق، ١٤٤٢، الطبعة الثامنة، ص.

ثانيًا: نشأة الاستعمار:

لم تكن فكرة الاستعمار وليدة العصر الحديث؛ فالاستعمار له جذورٌ ضاربة في عمق التاريخ... ولقد تعرَّضَ العالَم الإسلامي على مدار تاريخه العديدَ من المطامع والغزو من قِبَل أعدائه.

وتشير الباحثة إلى أن الاستعمار في تلك المرحلة كان اعتماده الكلي على القوة العسكرية التي تفرض السيطرة على البلاد المُستعمَرة، وتنهب خيراتها وثرواتها، وسنرى فيما هو قادم هل سيبقى الاستعمار هكذا يعتمد القوة العسكرية فقط لتحقيق مراداته أم لا.

ومِن الملاحظ أن الغزو الاستعماري يتعلم مِن دروسه ؛ يظهر هذا جليًّا في " الحملة الفرنسية على مصر " ١٨٩٨: ١٩٠١... فلقد أفاد نابليون من تجارِب الحروب الصليبية ؛ فلم يأت للعالَم الإسلامي بالقوة العسكرية فقط ؛ بل أتى معه العلماء والمفكرون، كما أتى ومعه نساء غواني لنشر الفاحشة بين المصريين، إلى جانب المدفع / القوة العسكرية، وهذا له دلالته الخطيرة ؛ إذ هو تمهيدٌ لاحتلال فِكْر البلد قبل احتلال أرضه.

إذًا فالتدرج واضح في تاريخ الفكر الاستعماري بدايةً من اعتماده القوةَ العسكريةَ كعمود أساس للسيطرة على البلد المراد نهب خيراته وثرواته، مرورًا بالتعريج إلى لون آخر من السيطرة، وهو السيطرة على الفكر، وهذا توضحه الباحثة في المبحث الثاني الخاص بأنواع الاستعمار.

ثالثًا: المعامل الاستعماري والقابلية للاستعمار عند مالك بن نبي:

أ: المعامل الاستعماري:

استخدمَ مالك ابن نبي هذا المصطلح للتدليل على أن المستعمِر عندما يدخل أرضًا ليستعمرها، وهذه سياسة المستعمِر؛ فإنه يحاول أن يخلقَ نموذجًا من الحياة والفكر بالطريقة التي تروق له ويرتضيها وتكون سببًا في تحقيق أهدافه، وبعد أن يرسم المستعمِر تلك الخريطة الفكرية للمستعمَر وتتم السيطرة المادية والمعنوية؛ يقبل المستعمَر بالحدود التي رسمها له المستعمِر، ويفكِّر من خلالها ولا يستطيع الخروج عنها، ويرسم شخصيته وحياته طبقًا لتلك الحدود.

يقول مالك بن نبي: " وللمعامل الاستعماري تاريخه في سياسة الاستعمار؛ فقد كان الفرنسي (بوجو) هو أول فرنسي أدرك حقيقةَ الشعب الجزائري وما ينطوي عليه من عبقريةٍ فذَّةٍ، أدرك ذلك إدراكًا وضع بمقتضاه الطريقة المناسبة لاستقرار الاستعمار "[١]

(١)ابن نبي (مالك)، شروط النهضة، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٦، دون سنة نسر، ص ١٤٦.

يتضح من النص السابق أن الاستعمار لم يعد كما كان من قبل من كونه يأتي بالقوة العسكرية المجردة من كل معرفةٍ بطبيعة الشعب الذي سوف تقدم إليه، بل أصبح الأمر يتعدى تلك الفكرة القديمة التقليدية، وهنا تكمن خطورة الاستعمار في ثوبه الجديد، إذ أصبح على دراية بطبيعة وخفايا البلاد التي يضع عينه عليها.

بل يطور المستعمِر من نفسه قبل القدوم إلى البلد المستعمَرة، ولقد اتضح هذا اللون الجديد من الاستعمار في استعمار فرنسا للجزائر، حيث أن الفرنسي بوجو " قد وضع تلك الفكرة أساسًا تخطيطًا لسياسته الفرنسية، والتي كانت في نظره تحتاج إلى معمرين يتكافأون مع قيمة الأهالي الطبيعية، لذلك فإن شهادته بتلك الحقيقة لم تكن تخلو من النظر السياسي؛ **(فاصلة عادية)**إذ كان يريد اختيار معمِّرين تساوي قيمتهم قيمةَ الشعب الجزائري... وإن كان الخصم الفرنسي في هذا الموضع قد اعترف بميزة للشعب الجزائري، إلا أن شهادته هذه أصبحت الموحية لسياسة التهديم في جوهر الفرد الجزائري "(١)

لقد كان لهذا المعامل الاستعماري كبير الأثر في شخصية الفرد، سواء كان طفلًا أم شابًا أم غير ذلك، ومن مظاهر تأثير هذا المعامل الاستعماري في شخصية الطفل، هو "أن المجتمع لا يمده بما يقوي جسده وينمي فكره، أو يُهيء له مدرسة أو توجيهًا"(٢)

بمعنى إعداد الطفل وتنمية وعيه بحيث ينشأ على دراية بمتطلبات وقته ومجتمعه. وهذا الفعل من المستعمِر يُحكِم الخناق على البلاد المستعمَرة؛ فتكون في نطاق محدود يُهيِّئه المستعمِر.

كل_هذا يوضح أن الاستعمار لم يكن على وتيرة واحدة طوال تاريخه؛ بل أصبح يتعامل مع المتغيرات الجديدة، مثل الإفادة من الاحتلالات التي كانت تستخدم القوة العسكرية فحسْب، ولا يأخذ الأمور من جانبه فقط؛ فقد أصبح ينظر إلى نفسية وعقل المستعمِر أكثر مما ينظر إلى السلاح والقوة العسكرية التي يأتي بها.

ب: القابلية للاستعمار:

لا شك أن الأطماع بمختلف أنواعها هي مُحَرِّكٌ قوي ودافع للمستعمِر، وتتعدد أسباب الاستعمار، فمنها "أن الثورة الصناعية قد ساهمت في إفراز وضع جديد أدي إلى اشتداد الموجة الاستعمارية وتحركها باتجاه عالم أصبح يعاني من التخلف متنوع الأشكال،

(١)المصدر السابق، ص ١٤٦.

(٢)اللموشي (حسن يوسف)، الاستعمار، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، طرابلس، ١٩٩٠، ط: الثانية، ص ١٣.

والحاصل في جميع مناحي الحياة العامة، وهذا الوضع شكَّلَ العامل الرئيس لعملية انتشار وتوسع الحركة الاستعمارية، حيث تمكنت الدول المستعمِرة من الاستيلاء على مناطق عديدة من العالَم، وأخذت الدول الكبرى تتسابق للتحكم في ثروات الأمم المتخلفة"[١]

إلا أن هذا كله لا يعني أنه ليس ثمة مسؤولية على المستعمَر نفسه، بأن يكون هو نفسه من الأسباب التي أدت إلى استعمار بلده، وهذا ما ظهر عند مالك بن نبي وعُرِف " بقابلية الاستعمار " أي أنه بدأ يتكلم على لون آخر يختلف عن اللون الشائع، والذي يلقي بالمسؤولية كلها على كاهل المستعمِر، ليهرب المستعمَر ويتنصَّل بهذا من المسؤولية، فهذا هو " سبب داخلي " ينبع من داخل الفرد المستعمَر نفسه.

والمنطلق الأساس الذي انطلق منه مالك بن نبي في نَحْتِه لمصطلح القابلية للاستعمار هو التجربة التي مرَّت بها الجزائر من الاحتلال الفرنسي.

ويُلقي مالك بن نبي باللوم في هذا الجانب على الفرد المستعمَر نفسه، ويتخذ من بلده الجزائر مثالًا ينطلق من خلاله، حيث يعيب على الرجل الجزائري قبوله أن يُطلِق عليه المستعمِر مصطلح (الأهلي)، فيقول: " نرى أولًا هذا الرجل –أي الرجل الجزائري_ يقبل اسم (الأهلي) يوم استأهلَ لكل ما ترمي إليه المقاصد الاستعمارية من تقليل قيمته من كل ناحيةٍ حتى من ناحية اسمه! "[٢]

فبدايةُ الرضوخ هنا هو أن يقبل صاحب البلد بأي توصيف له من عدوه حتى ولو كان في اسمه ؛ حيث إن هذا بداية الاستكانة للفكر الخارجي، تمهيدًا لقبول فروض سوف يفترضها عليه الأجنبي، ويجد نفسه يحققها حتى دون أن يشعر.

ويستكمل مالك بن نبي في توضيح الفجوة الداخلية التي يمر من خلالها المستعمِر، فيقول: " إن المستعمِر يريد منَّا جهلةً يستغلهم، وهو يريد منَّا انحطاطًا في الأخلاق كي تشيع الرذيلة بيننا... وهو يريد تشتيت مجتمعنا وتفريق أفراده شيعًا وأحزابًا حتى يحل بهم الفشل في الناحية الأدبية، كما هم فاشلون في الناحية الاجتماعية [٣]

ثم يشير مالك بن نبي إلى العِلَّة التي جعلته يتنبَّه إلى عامل " القابلية للاستعمار " حيث يذكر: " وربما لم نكن لنفقه لهذا الداء الباطني معناه الاجتماعي لولا أن الفئة اليهودية في الجزائر قد لقَّنتنا درسًا مفيدًا ؛ فقد رأينا كيف أن اليهود أثناء الحرب الماضية كانوا

(١)مالك بن نبي، شروط النهضة، ص ١٥٣.

(٢)مالك بن نبي، شروط النهضة، ص ١٥٤.

(٣)مالك بن نبي، شروط النهضة، ص ١٥٤.

يعيشون ساعات شديدة من الاضطهاد ؛ كانت الدوائر الحكومية تحكمهم بقوانين قاسية، تتغصِّص عليهم حياتهم في كل ميدان ؛ كان أبناؤهم يُنبذون من دور التعليم، وتجاراتهم تُعرقَل بمختلف القوانين، وكانوا في هذه الحِقبة على وشْكِ أن تصيبهم العوامل التقليلية، التي قلَّلت من قيمتنا نحن المسلمين، غير أنه سرعان ما قام اليهود برد الفعل "[١]

" تكونت مدرسة سرية في كل بيتٍ من بيوتهم، يُدرِّس فيها أساتذة متطوعون، فيهم المهندس والطبيب والمحامي... وقد عمروا معابدهم أكثر من ذي قبل، في حين إن أعمالهم التجارية قد استرسلت في نشاطها أحسن وأقوى من الماضي، فظل تعاضدهم في الضرَّاء على مبدأ: الكل للفرد والفرد للجميع، وهكذا أُتيح لليهود أن يتجاوزوا ساعات الخطر ساعين منتصرين رغم ما كانوا يعانون من معوقات خارجية، سُلطت على حياتهم في كل جزئياتها "[٢]

ومن النص السابق يُظهِر مالك بن نبي كيف أن للمجتمع الداخلي الدور الأبرز في مجابهة الاستعمار والتغلب عليه ؛ فلقد تعاملت فئةُ اليهود في الجزائر بجديَّة مع الأحداث الخطيرة التي أحاطت بهم، فلم يحاولوا الاستكانة للأمر الواقع والإلقاء

باللوم كله على المستعمِر، بل كان بأيديهم " تغيير الأمر الواقع " وعدم الرضوخ لأيَّة إملاءات تُفرض عليهم وتكون سببًا في التأثير على هُويتهم!

وتوضح الباحثة الفكرة الجوهرية التي تخلُص بها من الطرح السابق: ألا وهي: (المسؤولية) وهو أنه لابد أن يتمتع الفرد والجماعة بالمسؤولية تُجاه ما يعتريه من أحداث، ولا يلجأ في كل حدثٍ ينزل به إلى تعليقه على شماعة ما حتى يتنصَّلَ من المسؤولية التي يجب عليه القيام بها وبحقها ؛ فلقد جعل الله العبد حُرًّا مُكلَّفًا، ولولا ذلك لَمَا صح الحساب، فالإنسان ليس ريشة في مهب الأقدار تُحرِّكه كيف شاءت ؛ بل هو الذي بيده أن يتغلب على ما يعتريه من أحداث؛ حيث إن التربية عبر الأسلوب التبريري نفي للمسؤولية، ولعل من أهم الظواهر الدالة على سوء الفهم الكوني والديني معًا، سيادة فكرة (الجَبْر) عبر السلوك الاجتماعي عامةً، وكذلك سيادة الفهم الخرافي / الأسطوري... إن جاز أن يكون هاهنا فهم! ففكرةُ الجَبْر تمثل عقبةً أمام المُصلح الاجتماعي، لأنه حين تشيع هذه الفكرة ؛ ينفلِت السلوك الجمعي ليفرز سلبية مقيتة، تمثل اغترابًا لأفراد المجتمع [٣]

([١])المصدر السابق، ص ١٥٤.

([٢])د. ميهوب (سيد عبد الستار)، هؤلاء المثقفون وفكرهم الإصلاحي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٣٠ – ٢٠٠٩، الطبعة: الأولى، ص ٣٣.

([٣])د. إبراهيم (عبد الله عبد الرازق)، المسلمون والاستعمار الأوروبي لأفريقيا، مجلة عالَم المعرفة، الكويت، العدد ١٣٩، يوليو ١٩٨٩، ص ١٣.

المطلب الثاني: أنواع الاستعمار:

على الرغم من أن أهداف الاستعمار وأطماعه تكاد تكون واحدة، إلا أن الاستعمار يتجلَّى في أثوابٍ عديدة، يستخدم منها المستعمِر اللون المناسب مع الشعب المراد استعماره.

ولأن الاستعمار لم يكن وليد العصر الحديث، فإن الشكل القديم للاستعمار يكاد ينحصر في الاستعمار من خلال القوة العسكرية، وهذا أحد أنواع الاستعمار التي ستعرض لها الباحثة.

أولًا: الاستعمار العسكري:

يُعد الاستعمار من خلال القوة العسكرية أقدم الألوان التي اتخذها الاستعمار لتحقيق مآربه، وهذا اللون من الاستعمار لا يعتمد إلا على القوة الغاشمة، التي تنزل بالأرض لتعيث بها فسادًا وإفسادًا من قتلٍ ونهْب للثروات وهتْكٍ للحرمات.

ولقد كانت الحملات الصليبية وهجمات التتار مثالًا واضحًا على محاول استخدام القوة الغاشمة في التعامل مع البلاد التي يُراد احتلالها ونهْبُها ؛ فلقد عاث التتار في البلاد فسادًا، بتقتيل الشعوب التي يأتوا إليها، والنساء والأطفال دون أدنى إنسانية ولا مراعاة لحُرمة.

ومن الأمثلة على هذا اللون من الاستعمار العسكري، هو ما شهدته القارة الأفريقية في العصر الحديث ؛ فلقد تعرضت لموجة استعمارية شديدة تمت مباركتها من الغرب بكل السبل ؛ ابتغاء نهب الدول الأفريقية والاستيلاء على خيراتها.

ومن الدوافع الاستعمارية للقارة الأفريقية هو " تعقُّب المسلمين القادمين من الأندلس، والقضاء على آخر معاقلهم على الساحل الإفريقي، ثم إجهاض أية محاولة للتفكير في العودة إلى هذه البلاد، وترتب على هذه الغزوة الاستعمارية محاولة تطويق المسلمين، وذلك بالاتصال بالمملكة المسيحية في بلاد الحبشة بزعامة برستر جون prester John، وأدت هذه الحركة إلى قيام الكشوف الجغرافية التي انتهت بالدوران حول أفريقيا، والوصول إلى شاطئها الشرقي، ودخلت في صراعٍ دمويٍّ مع الإمارات والممالك الإسلامية سواءً في شمال القارة أو في شرقها أو غربها [1]

... " ولقد اتخذت هذه الموجة صبغة صليبية ؛ ذلك لأن البابوية باركَت هذا العمل العدائي ضد المسلمين، واعتبرت كل مَن يستشهد في سبيل تحقيق هذا الهدف مِن شهداء

(1)عبد الله عبد الرازق إبراهيم، المسلمون والاستعمار الأوروبي لأفريقيا، مجلة عالم المعرفة، العدد ١٣٩، ص٧

الكنيسة، وبالتالي أيَّدَ الملوك والأمراء في كل من إسبانيا والبرتغال هذا العمل، ورصدوا مبالغ ضخمة للإنفاق منها على الحملات التي تتجه ضد المسلمين"[١]

يتضح من النص السابق التكاتفَ الذي يكون ضد المسلمين وبلادهم، ولقد كانت تلك الحملات على القارة الإفريقية سببًا أصيلًا في تقويض جزء من حضارة المسلمين، واستعباد الشعوب الأفريقية ونهب ثرواتها.

ومن آثار تلك الحملات على القارة الأفريقية هو تمزيق وتقسيم البلاد المستعمَرة، كما قامت بعمل حدود مصطنعة " قسَّمت أبناء القبيلة الواحدة بين أكثر من وحدة سياسية، وكانت هذه الحدود التي ساومت عليها الدول الأوروبية في القارة الأفريقية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر هي أساس الحدود الحالية، وهي بلا شك حدودٌ من صُنعِ الاستعمار ؛ ولا تتفق مع واقع القارة ولا شعوبها ؛ فأصبحت

مشكلات الحدود من أعقد الأمور التي تواجه قادة أفريقيا في مرحلة البناء والتعمير بعد الاستقلال "[٢]

فيتضح من هذا أن تلك الغزوات الاحتلالية كانت تستهدف المسلمين في المقام الأول، لأنهم الخطر الأكبر على الغرب ومصالحه، وهذا " ما أعطى حركات التوسع البرتغالي والإسباني صبغةً صليبية من أجل القضاء على المسلمين، ومن أجل تتبع الهاربين من الأندلس، وقد تطلب ذلك الأمر الدخولَ في صراعٍ مع مسلمي شمال أفريقيا، واحتلال هذه الأجزاء، وقيام أكبر عملية جهاد بحري في تاريخ البحر المتوسط استمرت منذ ١٤٩٢م حتى أواخر القرن التاسع عشر، وذلك عندما بدأت دولٌ استعمارية جديدة تدخل الميدان، وتتطلع إلى استعمار القارة بقصد القضاء على حضارة المسلمين، وبهدف التحكم في المناطق الاستراتيجية في القارة، وبغية السيطرة على أجزائها لضمان الحصول على المواد الخام اللازمة للثورة الصناعية التي قامت في أوروبا "[٣]

ثانيًا: الاستعمار الاقتصادي.

هو لونٌ من ألوان فرض السيطرة على الشعوب من قِبَل المحتَلِّين، وقد ظهر هذا اللون من الاستعمار وتطور عقب " الحرب العالمية الثانية ".

إن السياق المعاصر لمناقشة الإمبريالية* والإمبراطورية مختلف بشكل جلي عن الموقف الذي كان سائدًا إبَّان بداية القرن الماضي، حيث أثار جون هوبسون وغيره جدلًا حول

---

(١)المصدر السابق، ص ٨.

(٢)د. عبد الله عبد الرزاق، المسلمون والاستعمار الأوروبي لأفريقيا، ص ٨.

(٣)سوندرام (جومو كوماي)، القرن العشرين الطويل، ترجمة ؛ محمود كامل، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٥، ص ٨.

الإمبريالية، وفي بعض وجوهها كانت إمبريالية ما بعد الحرب العالمية الثانية مختلفة بشكل كبير عن إمبراطوريات الاستعمار في مرحلة ما قبل الحرب... فقد ظهر بعد انتصار الغرب في الحرب الباردة وزوال التحاد السوفيتي وتواري الدول الاشتراكية الباقية فضلًا عن تعزيز القوة العسكرية الأمريكية العظمى، وغالبًا

مرحلة تاريخية خاصة من مراحل الرأس مالية تتميز بثلاث خصائص: أ – أنها رأس مالية احتكارية، ب – أنها رأس مالية مُفسِدة، ج – أنها رأس مالية في حالة الاحتضار، فاستبدال المنافسة الحرة بالاحتكار هو العلامة الاقتصادية الأساسية، بل هو جوهر الامبريالية (يُنظر: اللجمي (أديب)، الامبريالية وحق الشعب، مجلة المعرفة، سوريا، العدد: ٦٧، يوليو ١٩٦٧.

ما يرتبط هذا الانتصار السياسي بظهور أيديولوجية اقتصادية ليبرالية جديدة[١]

يظهر مما سبق أنه أصبح هناك توجه كبير للسيطرة على الدول من خلال عامل جديد، ألا وهو عامل الاقتصاد، لِمَا لهذا العامل من أهمية كبرى في تقرير مصير الشعوب، وهذا ما فطن إليه الغرب وخاصة أمريكا في سياساتها الحديدة التي تلت الحرب العالمية الثانية.

" وقد حصلت أغلبية الدول المستعمَرة بعد الحرب العالمية الثانية على استقلالها السياسي عن طريق نضالها الذاتي، في حين أن بلداناً أخرى وُهِبت استقلالها دون عناء، لأن الاستعمار كان قد أوجد داخلها الإدارات والمؤسسات والأشخاص الكفيلين بتأمين استمرار سيطرته، وهكذا وبالرغم من الاستقلال، ما زالت معظم الدول تعيش بتبعية شبه كاملة للدول الاستعمارية السابقة"[٢] .

وتمثل **التبعية الاقتصادية** خطرًا كبيرًا على الشعوب، فمن خلال استيلاء الاستعمار على ثروات وخيرات دول العالَم الثالث ؛ استطاع بذلك أن يخلق داخل هذه المجتمعات حالةً من الاحتياج الشديد للغير، وكان هذا أهم سبب في تغيير المستعمِر لخريطته في التعامل مع دول العالم الثالث، حيق كان الاستيلاء على ثروات هذا العالَم من قبل يتطلب القوة العسكرية والتدخل المباشر بالنهب والسرقة، أما ما بعد الحرب الأوروبية فقد تحول الاستعمار وابتدع شكلًا جديدًا يقوم أساسًا على ربط بلدان العالَم الثالث به عن طريق

(١)حسن يوسف اللموشي، الاستعمار، ص ٥٣.

(٢)د. عمارة (محمد)، الغزو الفكري وَهْمٌ أم حقيقة، مطابع روزاليوسف، القاهرة، ٢٠٠٣، ص١٥.

التبعية الاقتصادية، والتي تأخذ شكلين: المبادلات التجارية، والتوظيفات والمساعدات الأجنبية، ومثال ذلك: صندوق النقد الدولي.

ثالثًا: استعمار الهُويَّة:

عند الحديث عن استعمار الهُوية، بذلك نكون قد وصلنا لأخطر الألوان التي تم استخدامها وتطويرها للسيطرة على الشعوب بطريقة أخرى غير استخدام الجيوش والقوة العسكرية... وتتمثل خطورة استعمار الهُوية في أن استخدام القوة العسكرية عبر التاريخ في الحملات الاحتلالية على الشعوب دائمًا يثير المقاومةَ من تلك الشعوب تجاه هذه القوة العسكرية، ويُبْرِز أدوارَ المناضلين إن بالفكر أو الجهاد المسلَّح ضد المحتَل، بينما استخدام الفكر في عملية احتلال الشعوب يُعد كالحرب الناعمة، لأنه يتشكل في أثواب مختلفة لا تتم ملاحظتها إلا من خلال النخبة التي

تكون على درجة من الوعي والثقافة، فتتسلل بذلك إلى عقول العامة والأغلبية دون قتل الأجساد، فتقتل المقاومة تجاه هذا المحتَل بنسبة كبيرة ؛ ويترتب على ذلك أن تتحول عقول الدول المستعمَرة إلى " التَّبَعيَّة " للمحتَل في نمط ثقافته، وبهذا تكون عقلية وأرض هذا المستعمَر جاهزة لأن تُحتَل دون استخدام القوة العسكرية ؛ فمِن خلال ضمان تبعية هذا المستعمَر للمستعمِر ؛ يكون نهْب ثرواته بالمجان دون تكلفة عسكرية تُذكر.

وفي بداية الحديث عن استعمار الهُوية، لابد أن أشير إلى الاستعمار للهُوية / للفِكر لا يتم في شتى المجالات والعلوم ؛ حيث إن هناك علومًا تمثل المشترك الإنساني العام بين جميع الأجناس، وهناك ثقافات متميزة وهذه التي يحدث لها الاحتلال، كاللغة والثقافة المجتمعية، والدين.

يقول الدكتور محمد عمارة: " إذا نظرنا إلى الفكر على المستوى الإنساني والعالمي، سواءً أكان إبداعًا للإنسان المعاصر أم ميراثًا وتراثًا لأسلافنا في الحضارات المختلفة، هناك في هذا الفكر ما هو " مشترك إنساني عام " لا يختص بحضارة بذاتها أو قومية بعينها، أو أهل ديانة دون غيرها، فهو كالماء والهواء ؛ تحتاجه كل نفس، وينهض بمهمة الإحياء لدى الناس أجمعين... ومن هذا الفكر ما يتميز بالخصوصية والاختصاص بإطارٍ حضاريٍّ بعينه، وشخصية قومية بذاتها، ويقوم الاتساق بينه وبين تكوين عقدي دون سواه"[١]

(١) د. عمارة (محمد)، الغزو الفكري وَهْمٌ أم حقيقة، مطابع روزاليوسف، القاهرة، ٢٠٠٣، ص١٦.

واللون الأول من الفكر الذي هو مشترك بين البشر، لا يحدث فيه استعمار الهوية، أما الشِّق الخاص بخصوصيات الحضارة، فهذا الذي يركز عليه الاستعمار ويعمل على السيطرة عليه في الشعوب المراد احتلالها.

ومن الأمثلة على تلك العلوم اللون الفكري الذي لا يقع في احتلال: " العلوم الطبيعية وظواهرها، والمادة وخصائصها، وذلك لأن مناهج تلك العلوم تتميز بالحياد العلمي، ولأن التجربة الملموسة بالحواس المادية هي السبيل لاكتشاف حقائق هذه العلوم، تلك الحقائق هي بنت الدليل، والتي لا تختلف باختلاف مذاهب وعقائد وأجناس وفلسفات المكتشفين، ومِن ثَمَّ فهي لا تتغاير بتغاير القوميات والحضارات، فعلوم مثل الرياضيات بفروعها، ومثل الكيمياء، والطبيعة، والطب، والجيولوجيا، لم ولن تختلف مناهجها وحقائقها وقوانينها باختلاف الحضارات، قد تتمايز وظائف

استخدام قوانينها ونظرياتها ومكتشفاتها، لكن حقائق علومها، أي " فكرها العلمي " سيظل واحدًا مهما اختلفت المذاهب والعقائد والحضارات "[١]

والوجه الفكري الذي يركز عليه الاستعمار هو ذلك الوجه الذي يتمثل في الخصوصية الحضارية كالثقافة بجميع مفرداتها من لغة وعادات وتقاليد وغير ذلك من الأمور الخاصة، والتي يتميز فيها كل مجتمع عن غيره.

ولقد حاول الاستعمار من مجيئه إلى البلاد الإسلامية أن يقدمَ نفسه على أنه نموذج فريد للحضارة، يتفوق على كافة الحضارات في العالَم، مما أدى إلى نوع من الاغتراب النفسي والاجتماعي والسياسي عند الشعوب المستعمَرة.

وتعددت محاولات الاستعمار في السيطرة على الشعوب من خلال طمس الهُوية، فقد " بدأت عملية غسل دماغ واسعة لشعوب العالَم الثالث، وبُذلت جهود كبيرة من أجل إقناعهم بأن عليهن تقليد المستعمِر، كالذي حدث عندما دخل الاستعمار الفرنسي أفريقيا ؛ حيث كان المدرسون الفرنسيون ينتقدون أجداد الطلاب الأفارقة ويقولون عنهم بأنهم كانوا متوحشين، وفي نفس الوقت كانوا يضربون المثل الأعلى بأجدادهم الفرنسيين، ويعتبرون مجيئهم إلى أفريقيا إنقاذًا لهم مما هم عليه من وحشية وتخلف خلَّفها لهم الأجداد، وهكذا وبصورة تدريجية أخذوا يدمرون الشخصية الوطنية لهءه الشعوب ويفقدونها الثقة في نفسها وفي تاريخها وفلسفاتها[٢]

([١])حسن يوسف اللموشي، الاستعمار، ص ٤٣: ٤٤.

([٢])عاشور (أحمد محمد)، صفحات تاريخية خالدة، المؤسسة العامة للثقافة، ليبيا، ١٣٧٧، الطبعة: الأولى، ص ١٣٣.

يُعد الاحتلال الفرنسي للجزائر من أهم الغزوات التي تمت في العصر الحديث على البلاد الإسلامية، وتكمن خطورة هذا الاحتلال في أنه بدأ يعمل على لون آخر من السيطرة على الشعب الجزائري، إضافة إلى القوة العسكرية ؛ فقد استخدم الاحتلال – إلى جانب القوة العسكرية – أساليب لمحاولة تغيير ثقافة الجزائر واحتلال الفكر فيها قبل احتلال الأرض.

لم تأت فرنسا إلى الجزائر طمعًا في احتلال أرضها فقط ؛ بل أرادت محو الهُوية الجزائرية كاملةً أو ما يصح أن أقول عنه " فرنسة الجزائر "، فقبل بدء الاحتلال الفرنسي، قال وزير حربية فرنسا في ذلك الوقت: إنه يجب القضاء على الجزائر، ولقد تعهدت فرنسا بدءًا من ملكها إلى رجالات الدين المسيحي بالعمل على نشر المسيحية بين سكان أفريقيا وردهم إلى أحضان الكنيسة الكاثوليكية، وتلقى الملك

شارل العاشر تقريرًا من وزيره (دوق دي كلير مون تونير) وزير حربية فرنسا في ذلك العهد الأسود، ورد فيه: أخذًا بثأر تلك الإهانة التي لحقت بممثل فرنسا، وإرضاءًا للمسيحيين، وذلك بإبادة المسلمين أشد أعدائهم طغيانًا [١] .

يظهر من النص السابق الأطماع الفرنسية التي تتجاوز محرد احتلال الجزائر عسكريًّا ونهب ثرواتها ؛ بل تخطى الأمر إلى محاولة تغيير الثقافة والهُوية بالكلية، وذلك بمحاولة تبديل دين الدولة الإسلامي، ونشر الكاثوليكية!! وهذا على نقيض ما عهدناه عن الاحتلالات، والتي يكون غرضها في المقام الأول هو نهب الثروات والسيطرة على الأرض.

وفي خطاب العرش الذي ألقاه الملك شارل العاشر في مجلس النواب والشيوخ مجتمعين يوم ٣١ يناير ١٨٣٠ م، حاء فيه: وسترون أيها السادة أن التعويض الضخم الذي ستحصل عليه حكومتي ردًّا لشرف فرنسا، سيؤول لإخواننا في الدين المسيحي... أما الجنرال دي مونالذي تولى قيادة الحملة البرية على الجزائر، قال في بيانه الموجه إلى الوعاظ المرافقين للجيش في إحدى المناسبات الدينية: لقد حئتم لتعيدوا معنا فتح الباب على مصراعيه لتدخل المسيحية أفريقيا، وإنَّا نأمل أن تعم هذه الربوع قريبًا، لتعمل من جديد على ازدهار المدينة التي انطفأ مصباحها منذ عظة قرون.

لاتَّضح لنا جليًّا أن مسلكها لم يكن يتنافى مع أبسط قواعد العدالة فحسب؛ بل كان يتعارض كذلك مع ما يمليه العقل والحكمة، ولقد أهدرت السلطات الفرنسية حقوق

(١)أحمد محمد عاشور، صفحات تاريخية خالدة، ص١٣٦.

الشعب، وداست مقدساته، وسلبت حرياته، وبعد ذلك راحت تطالب الأمة بالإخلاد إلى السكينة، والكف عن المقاومة، بل لقد ضمَّت السلطات الفرنسية أعيان الأوقاف الدينية إلى مصلحة الأملاك، واعتدت على الملكية الفردية، وصادرت أموال كبقة من الشعب... وألقت سلطات الاحتلال شيوخ القبائل في السجون لأنهم آووا جنودًا فرنسيين قط فروا من الخدمة، وأنعمت هذه السلطات على الخونة الذين باعوا بلادهم... واستولى الفرنسيون على الأموال من خزانة الدولة الجزائرية، ولقد وصلت المبالغ التي تم الاستيلاء عليها في يوم الاحتلال ١٥٠ مليونًا من الفرنكات الذهب وغيرها من المواد الثمينة التي أخذها الفرنسبون الغاصبون، فقد كانت أطماع الاستعمار الفرنسي لا حد لها في الاستيلاء والسطو وطرد أصحاب الأرض
الشرعيين وتفقيرهم ليقبلوا بواقع الاستعمار المحتوم "[١]

رابعًا: الاستعمار الاستيطاني: الاستيطان اليهودي أنموذج:

يُعد (الاستعمار) الاستيطاني من أشد أنواع الاستعمار في العصر الحديث، فهو يعمل على شَرعَنة وجوده في أرض غير أرضه، ولا يكتفي بهذا، بل يعمل على إزاحة أهل البلاد الأصليين، وهو ما يتجلى بوضوح في النموذج الاحتلالي الصهيوني في أرض فلسطين، وفيما يلي جذور هذا الفكر الاستيطاني عند اليهود.

أولًا: الاستيطان اليهودي في ظل التوسع الغربي:

يرتبط تاريخ الأطماع الأوروبية في فلسطين بنشأة الصهيونية ودعمها والتمهيد لها، حيث في "منتصف القرن السابع عشر في تلك الفترة كان هنالك صراع مرير بين الدول الأوروبية حول السيطرة على التجارة العالمية والتحكم في طرق مواصلاتها، وكان البيوريتانيون آنذاك لا يشكلون الطبقة الحاكمة في إنجلترا والأراضي المنخفضة فحسْب؛ وإنما كانوا هم أيضًا القوة الاقتصادية المنفذة، فمنهم كان كبار التجار ورجال الأعمال، ونظرًا للصلة الوثيقة التي كانت تربط البيوريتانية باليهودية؛ فقد تهيأ لليهود مجالٌ واسعٌ للمساهمة في النشاط التجاري دون خوف أو وجَل من البيوريتانيين، ولم يكن عسيرًا على رئيس إنجلترا البيوريتاني آنذاك(أوليفر كروموبل) أن يُدرِك مدى الفائدة المادية التي كان بمقدار اليهود تقديمها لاقتصاديات بلده وخاصة في المجال التجاري؛ ولذلك فإنه أبدى اهتمامًا كبيرًا بشؤون اليهود وأخذ يقدم الكثير من التسهيلات لهم"[٢]

([١])د. محمود (أمين عبد الله)، مشاريع الاستيطان اليهودي من قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، مجلة عالم المعرفة، الكويت، العدد: ٧٤، فبراير ١٩٨٤، ص ١١: ١٢.
([٢])المصدر السابق، ص ١٢.

وقد نظَّمَ عددٌ من البيوريتانيين الإنجليز حركة بهدف مساعدة اليهود على الاستيطان في فلسطين، وقاموا بتقديم عريضة إلى الحكومة الإنجليزية، جاء فيها: إن الأمة الإنجليزية مع سكان الأراضي المنخفضة سيكونون أولى الناس وأكثرهم استعدادًا لنقل أبناء إسرائيل وبناتها على سفنهم إلى الأرض الموعودة لأجدادهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب كي تصبح إرثًا دائمًا لهم(١)

يتضح من النص السابق بعض الأمور:

إن الأطماع الغربية التي حاولت استغلال اليهود بأن تدعمهم للاستيطان في فلسطين لا يعني أن المسألة سياسية بحتة، ولا يُبَرِّئ اليهودَ من دوافعهم الذاتية -بعيدًا عن الأطماع الغربية- التي تهدفُ إلى الاستيطان في فلسطين بنزعة دينية خالصة؛ بدليل أنه حتى في العريضة التي تم تقديمها للحكومة الإنجليزية في الفقرة السابقة، تم ذِكْرُ مستندًا دينيًّا لتبرير عودة اليهود إلى فلسطين بأن قالوا سيكونون أولى الناس وأكثرهم بالعودة إلى الأرض الموعودة لأجدادهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب... ولا شكل أن هذا من الاستناد إلى الدين بشكل واضح، ويؤكد على أن اليهود هم الذين روَّجوا لتلك الفكرة، وإلا فكيف يعرفها الإنجليز دون أصحاب الشأن أنفسهم؟! وما محاولة الغرب للإفادة من توطين اليهود في فلسطين إلا من باب تلاقي الأغراض، ولا ينفي بحال من الأحوال الأطماع الدينية لليهود في الاستيطان في فلسطين.

ولقد كانت فرنسا أول مَن طرح بشكل جدّي فكرةَ توطين اليهود في فلسطين، فقد أعدت حكومةُ الإدارة الفرنسية عام ١٧٩٨م خطةً سرية لإقامة (كومنولث١يهودي في فلسطين) حال نجاح الحملة الفرنسية في احتلال مصر والمشرق العربي بما فيه فلسطين، وذلك قابل تقديم الممولين اليهود قروضًا مالية للحكومة الفرنسية التي مانت تمر آنذاك في ضائقة اقتصادية خانقة، والمساهمة في تمويل الحملة الفرنسية المتجهة صوب الشرق... ودعا أحدُ زعماء اليهود الفرنسيين إلى تكوين مجلس يضم جميع الطوائف والفئات اليهودية، ويتخذ من باريس مقرًّا له ليعمل بالتنسيق مع حكومة الإدارة الفرنسية من أجل إعادة بناء وطن يجمع شملَ اليهود وينظم حياتهم، وأصدر هذا الزعيم اليهودي منشورًا جاء فيه:

(١)د. أمين عبد الله محمود، مشاريع الاستيطان اليهودي من قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، ص ١٢.

إن عددنا يبلغ ستة ملايين في أقطار العالم وفي حوزتنا ثروات طائلة، فيجب أن نتذرع بكل ما لدينا من وسائل لإنشاء وطن لنا[١]

وهذا النص للزعيم اليهودي يؤكد مرةً أخرى أن الأطماع اليهودية كانت بالفعل موجودة حتى قبل أن يحاول الغرب استغلال هذه الرغبات في نفوس اليهود لخدمة مصالحه في الشرق الإسلامي، بدليل آخر وهو أنه عند وصول نابليون إلى مصر عام ١٧٩٨ أصدرَ بياناً حثّ فيه يهود آسيا وأفريقيا على الالتفاف حول رايته من أجل إعادة مجدهم الغابر، وإعادة بناء مملكة القدس القديمة، ومما جاء في بيان نابليون: " أن العناية الإلهية التي أرسلتني على رأس هذا الجيش إلى هنا قد جعلت

العدل رائدي، وكلفتني بالظفْرِ، وجعَلَت من القدس مقرها العام، وهي التي ستجعله بعد قليل في دمشق التي يضيرها جوارها لبلد داود، وتابع نابليون نداءه مخاطبًا اليهود بقوله: يا ورثة فلسطين الشرعيين، ودعاهم لمؤازرته طالبًا منهم العمل على إعادة احتلال وطنهم ودعم أمتهم والمحافظة عليها بعيدًا عن أطماع الطامعين لكي يصبحوا أسياد بلادهم الحقيقيين [٢]

(١)د. محمود (أمين عبد الله)، مشاريع الاستيطان اليهودي من قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، ص ١١: ١٢.

(٢)د. أمين عبد الله محمود، مشاريع الاستيطان اليهودي من قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، ض ١٣.

المصادر والمراجع

١ – د. إبراهيم (عبد الله عبد الرازق)، المسلمون والاستعمار الأوروبي لأفريقيا، مجلة عالَم المعرفة، الكويت، العدد ١٣٩، يوليو ١٩٨٩.

٢ – الجندي (أنور)، العالَم الإسلامي والاستعمار السياسي والثقافي والاجتماعي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٣، ط. الثانية.

٣ – سوندرام (جومو كوماي)، القرن العشرين الطويل، ترجمة ؛ محمود كامل، المركز القزمي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٥.

٤ – عاشور (أحمد محمد)، صفحات تاريخية خالدة، المؤسسة العامة للثقافة، ليبيا، ١٣٧٧، الطبعة: الأولى.

٥ – د. عمارة (محمد)، الغزو الفكري وَهْمٌ أم حقيقة، مطابع روزاليوسف، القاهرة، ٢٠٠٣.

٦ – ابن فارس (أبو الحسين)، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، ج ٤، دار الفكر، القاهرة، دون سنة نشر.

٧ – اللموشي (حسن يوسف)، الاستعمار، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، طرابلس، ١٩٩٠، ط: الثانية.

٨ – د. محمود (أمين عبد الله)، مشاريع الاستيطان اليهودي من قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، مجلة عالم المعرفة، الكويت، العدد: ٧٤، فبراير ١٩٨٤.

٩ – الميداني (عبد الرحمن حنبكة)، أجنحة المكر الثلاثة، دار القلم، دمشق، ١٤٢ هجري، ط. الثامنة.

١٠ – د. ميهوب (سيد عبد الستار)، هؤلاء المثقفون وفكرهم الإصلاحي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٣٠ – ٢٠٠٩، الطبعة: الأولى.

١١ – ابن نبي (مالك)، شروط النهضة، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٦، دون سنة نشر، دون طبعة.